المحاضرة الثانية

تعريف المماليك ونشأتهم:

- المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول من الفعل « ملك»، ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم، فقد وردت عبارات « ملكت أيمانكم» و«ملكت إيمانهم» و«ملكت يمينك»>
- لم يلبث لفظ المملوك أن اتخذ معنى اصطلاحيًا خاصًا في التاريخ الإسلامي، ومن ثم أصبح يقصد بالمماليك: جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقًا إما نتيجة الأسر في ميادين الحرب، أو للشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية رغبة في بيعهم بأثمان مرتفعة، واقترن ذلك اللقب بالرقيق الأبيض دون السود، وكانت بلاد الترك في وسط آسيا وأنحاء كثيرة من أوربا ومن بلاد بحر البلطيق المصدر الرئيسي- الذي أتي منه المماليك، وكان هؤلاء المماليك يفخرون بأنفسهم وانتمائهم إلى الأتراك، إذ لعب المماليك دورًا هامًا في تاريخ الدولة الإسلامية.
- انتسب المماليك إلى تُجار النخاسة(تجار الرقيق) أحيانًا، وإلى سادتهم الذين اشتروهم أحيانًا أخرى. كما انتسب بعضهم إلى الثمن الذي دفع عند شراء أحدهم إن كان المبلغ كبيرًا، وسادت علاقة أستاذية بين السيد ومماليكه فهو أستاذهم وسيدهم. وعلاقتهم به قوية، لأنه هو الذي رباهم وانفق عليهم ورعاهم رعاية إسلامية فتنشأ عن ذلك رابطة لا انفصام لها بين الأستاذ ومماليكه، فيكونون دومًا رهن إشارته وينفذون أوامره، وكانت تربط الأمراء الذين عاشوا عند سيد واحد علاقة

الخشداشية أي الزمالة، فهم جميعًا زملاء وأصدقاء وكانوا يؤمنون أنهم جميعًا متساوون في النشأة والأصول والحق والواجب ولم يكونوا عبيدًا للخدمة فقط مثل غيرهم في البلاد الإسلامية إذ كانوا يرون أن السُّلْطان واحد منهم، وكان هؤلاء المماليك يحررون ويعتقون فيتسلمون المناصب العليا في الدولة مثل قيادة الجيش أو نيابة الأقاليم، أو وظيفة من من وظائف الدولة العليا تمشيًا مع روح الإسلام التي تتركز على المساواة بين الآدميين والتي تجعل من التقوى في المعيار الذي يوزن به المرء في حياته الدنيا والآخرة.

- اهتم سلاطين الأيوبيين وكذلك سلاطين المماليك من بعدهم بتربية المماليك تربي إسلامية ويتعلمون القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، والوقوف على معالم السيرة النبوية الشريفة حتى إذ فرغوا من ذلك انتقلوا إلى التدريب العسكري وتعلم أساليب الحرب، وفنون القتال.(تربية المماليك)
- كان المماليك في هذه المرحلة يقسمون إلى طوائف، وكل طائفة يتسلمهم معلم فيعلمهم السباحة وركوب الخيل واللعب بالسيوف والضرب بالرماح والقذف بالأطواق والمبارزة ورمي النشاب ولعب الكرة بقصد إصابة الهدف، فيكون جنديًا كاملًا يلتزم بالطاعة وإتباع الأوامر وتنفيذها. وكان المملوك إذا ما ظهرت كفاءته وشجاعته في ميدان القتال والمبارزة أمكن ترقيته وعتقه وإدراجه في سلك صفوف الجيش، أو غير ذلك من المناصب العليا في الدولة.

- استطاع المماليك خلال فترة حكمهم التي امتدت ما بين سنتي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، في التصدي لأعداء الإسلام في الشرق والغرب وجاهدوا باسم الله وفي سبيله ضد أعداء الإسلام والمسلمين، ولقد اعترف لهم بهذا الفضل الكثير من المسلمين وغيرهم.
- منذ العصر العباسي استُخدم المماليك في العالم الإسلامي فقام الخلفاء العباسيين باستخدامهم، وكان الخليفة المأمون أول من استخدمهم في بلاطه ولما تولى الخلافة المعتصم شعر بخطورة الاعتماد على العناصر الفارسية في حماية الدولة وحفظها، وفضلًا على ثقة الخليفة قد ضعفت في العرب لكثرة تمردهم، ولهذا اتجه المعتصم لاستجلاب عناصر غير عربية من التركمان، وكون منهم فرقًا عسكرية لتدعيم نفوذه وحفظ دولته، وأحاط نفسه بجيش من التركمان والترك وسار من جاؤا بعده على نفس هذه السياسة واتخذوا منهم حرسًا خاصًا لهم كانوا يشكلون القوة الأساسية في الجيش في الولايات التابعة للخلافة العباسية.
- استخدم المماليك بكثرة في مصر على عهد الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية، وكان الفاطميون(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، في حاجة إلى جيش كبير يوطدون به أركان دولتهم في مصر، ويمكنهم من السيطرة على بلاد المشرق الإسلامي والانتصار على العباسيين، فزادوا من الديلم والغز والسودانيين وغيرهم.

تأسيس المماليك البحرية:

المماليك الصالحية النجمية:

- أما الدولة الأيوبية فقد اعتمدت على الأكراد والمماليك بكثرة، ففي عهد الملك الصالح نجم الدِّين أيوب قد ازدادوا عددًا وقدرًا، إذ اعتمد عليهم بعد أن خذله الأتراك، فزاد من شراء المماليك من العناصر التركية وأقام لهم الثكنات العسكرية في قلعة الروضة التي أنشأها بجزيرة الروضة عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، لتكون مقرًا لقواته المسلحة، وسموا بالمماليك البحرية، وكان الملك الصالح نجم الدِّين أيوب جهز قلعة الروضة بما يلزم من السلاح وعدد الحرب وأنشأ فيها جامعًا وستين برجًا ولما تم بناؤها انتقل إليها السُّلْطان الصالح مع أفراد أسرته ومماليكه وحاشيته، وقد رجح البعض في سبب تسميتهم بالمماليك البحرية أن السُّلْطان الصالح نجم الدِّين قد اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقرًا ومقامًا، فسموا بالبحرية لإحاطة النيل بهم، وهُناك من يقول أن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق ومن ثم سموا بالبحرية.

- في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت أهمية المماليك وزاد نفوذهم السياسي في الدولة الأيوبية، وذلك عندما تتمكن هؤلاء من خلع العادل الثاني من الحكم وإحلال الصالح نجم الدِّين أيوب في السلطنة، وكان من نتيجة ذلك أن ازداد تقدير الصالح للعناصر المملوكية وفضلهم عليه في توطيد دعائم حكمه، والاحتفاظ بملكه فأكثر من شراء

المماليك فزاد نفوذهم في أيامه، ولم يلبث أن ظهر دور المماليك واضحًا عندما اثبتوا كفاءتهم فى الجهاد ضد أبرز خطرين خارجيين واجها العالم الإسلامي فى الشرق الأدنى وهما الصليبيون والتتار.

انتقال السلطنة في مصر إلى المماليك:

- أخذت الظروف التي واكبت الحملة الصليبية السابعة تمارس فعالياتها حتى أدت في النهاية إلى زوال دولة بني أيوب، وقيام دولة جديدة على أنقاضها وهي دولة المماليك. ذلك أن مقتل تورانشاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، كان النهاية الطبيعية لدولته، لأسباب تعود في مجملها لسياسته الغاشمة تجاه مماليك أبيه الذين أبلوا بلاءً حسنا في وقف الخطر الصليبي الذي طرأ على مصر ٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م، فضلا عن تنكره لكل الجهود التي بذلتها شجر الدُّرّ، ورغبته في النهوض بمماليكه على حساب المماليك البحرية صنيعة أبيه، في وقت كان المماليك البحرية يخلصون لشجر الدُّرّ باعتبارها من حريم أستاذهم الذي اشتراهم؛ ولكونها أقرب إليهم من العنصر الحر؟ ونتج عن ذلك كله أن ضيق المماليك على السُّلْطان تورانشاه، وقتلوه دونما رغبة منهم في تسليم مقاليد السلطنة إلى أحد أبناء البيت الأيوبي، بل طمعوا فيها؛ وسعوا إلى امتلاكها؛ ومن أجل ذلك أقاموا شجر الدُّرّ في السلطنة؛ وجعلوا أيْبَك التُّرْكماني أحد أمراء المماليك لمنصب الأتابكية، وهكذا بويعت السُّلْطانة الجديدة في صفر ٦٤٨هـ/مايو١٢٥٠م.

- أقدم المماليك على مبايعة شجر الدُّرّ إعلانا منهم في الظاهر عن احترامهم لبني أيوب، وإخلاصًا منهم لأستاذهم الصالح نجم الدِّين أيوب وأرملته شجر الدُّرّ، بينما كانوا يضمرون في الخفاء الإعداد لتبوأ مقعد السلطنة.

• ما هي الصعوبات التي واجهت السُّلْطانة شجر الدُّور ؟

الرأي العام ومعارضة الخليفة العباسي	مشكلة لويس التاسع واحتلال الصليبيين دمياط	معارضة البيت الأيوبي في بلاد الشام

- لم يلق امرأة في السلطنة ترحيبًا من قبل رجال الدِّين، كما أنه قوبل بمعارضة شديدة من الخليفة العباسي المستعصم الذي أرسل إلى أهل مصر يعارضهم قائلًا «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»، فضلًا عن الرأي العام في مصر قد انطوى على غضب شديد معلنًا عن ذلك في صور من المظاهرات والاضطرابات.
- شعرت شجر الدُّرّ بالحرج الشديد معبرة عن ذلك بعدم توقيعها باسمها على المناشير، مكتفية بذكر«والدة خليل»، إشارة إلى خليل الذي أنجبته، وتوفي في حياة أبيه الملك الصالح أيوب، وكان أن حرصت على أن تنسب نفسها إلى الخليفة العباسي بنقش اسمها على السكة بصيغة «المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل»؛ ولم يكن

ذلك كله سوى رغبة منها في أن تضفي على حكمها صبغة شرعية استنادًا إلى صلتها بالخليفة العباسي والبيت الأيوبي في آن واحد.

- كان على شجر الدُّرّ أن تسلك سياسة هادفة تجاه أهم وأخطر مشكلة واجهت سلطنتها، ألا وهي التصرف بحكمة مع لويس التاسع وعساكره الباقية في مصر، وتُشير المصادر إلى أن ما اتخذته من إجراءات يكشف عن ذكائها وقدرتها في البحث عن حلول تكفل سلامة البلاد والعباد، من ذلك أنها ندبت بعد أن بايعها الأمراء والأجناد الأمير حسام الدّين محمد بن أبي علي لمفاوضة الملك لويس التاسع في تسليم دمياط، وكان أن أسفرت تلك المفاوضة على اتفاق قضى بإطلاق سراح لويس التاسع والسماح له بالذهاب إلى بلاده مقابل نصف فداء يؤديه عن نفسه مقدمًا وقدره أربعمائة دينار شريطة أن يؤدي النصف الآخر بعد وصوله عَكَّا وتسليم دمياط.
- سرعان ما أبدى لويس التاسع رغبته في الرحيل والجلاء عن دمياط فراسل ما بها من الصليبيين يطالبهم بتسليم المدينة، فوافقوه بعد أن أبوا، وبادرت زوجته مرجريت التي كانت في دمياط بجمع نصف الفدية ورحل الصليبيون عن دمياط؛ ليدخلها العلم الإسلامي في يوم الجمعة ٣ صفر٦٤٨هـ/١٢٥٠م. وهكذا أفرج عن الملك لويس التاسع وأخيه وزوجته، ومن بقي من أصحابه، وأسراهم بمصر والقاهرة ممن تم أسره خلال أحداث الحملة السابقة، وكذا أقرانهم من أسرى سابقين كانوا قد اقتيدوا إلى السجون على عهد سلاطين بني أيوب العادل والكامل والصالح وعدتهم اثنا عشر ألف أسير، حيث ساروا جميعًا إلى البر الغربي لدمياط ثم إلى عَكَّا.

- نجد أن جلاء الفرنجة(الصليبيين) عن دمياط وخروجهم على هذا النحو الهادئ السريع إنما يعود إلى سياسة شجر الدُّرّ التي انطوت على حكمة وذكاء، ذلك إنها سفهت آراء المعارضين ممن خالفوها في شأن السماح لملك الفرنسي- بالعودة إلى بلاده، وبالذات بعد أن أصبحت دمياط في أيدي المسلمين، وإذ بها تقر بضرورة احترام العهد الذي أخذوه على أنفسهم، وانضم إليها بعض قادة الجيش، وانتهى الأمر بإقناع المخالفين؛ وخرج الفرنج من مصر؛ وبخروجهم انتهت الحملة الصليبية بفشل ذريع.
- على أن بني أيوب في الشام لم يعجبهم قيام شجر الدُّرّ بالسلطنة في مصر، وأبدوا استياءهم؛ وكان أن أرسلت شجر الدُّرّ إلى دمشق الخطيب أصيل الدِّين محمد بن إبراهيم بن عمر لأخذ البيعة من أمرائها ولكن الأمير جمال الدِّين يغمور نائب السلطنة، والأمراء القيمرية أغلظوا له القول وغالطوه، واستعانوا بالملك النَّاصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي حفيد صلاح الدِّين وصاحب حلب وحثوه على المسير إلى دمشق؛ والوقوف ضد شجر الدُّرّ والمماليك في مصر، ويشير المقريزي بأن الملك الأيوبي النَّاصر يوسف انتهز الفرصة، وبادر الخروج من حلب على رأس جيش قاصدًا دمشق حيث وصل إليها في ربيع الآخر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ودخلها بعد أن فتح له أبوابها الأمراء القيمرية بإشارة من زعيمهم ناصر الدِّين أبو المعالي حسين بن عزيز أبو الفوارس القيمري الذي أدى المهمة- فيما نرى- بدافع كرديته في محاولة لتمهيد السبيل أمام الملك الأيوبي حفاظًا على بني جنسه من بني أيوب، وللحيلولة دون نجاح المماليك فيما سعوا إليه من مقاصد بدافع طموحهم على حساب الأيوبيين؛ الأمر الذي يَسّر على الملك النَّاصر يوسف صاحب حلب دخول دمشق دون عناء، حيث

خلع على القيمرية وزعيمهم، وقبض على الأمراء المماليك الصالحية، وأودعهم السجن، واستحوذ على قلعة دمشق ووزع مغانمها على الملوك والأمراء بأموال قدرها مائة ألف دينار وأربعمائة ألف درهم. وفي مقابل ذلك قُبض على القيمرية في مصر، وكل من اتهم بالميل على النَّاصر يوسف والحلبيين، واقترن ذلك كله بأن جدد المماليك في مصر الإيمان لشجر الدُّر، وأيدوا قيام الأتابك عز الدّين أيْبَك التُّرْكماني في قيادة الجيش، ومما لاشك فيه فإن المماليك الصالحية جددوا بيعتهم لشجر الدُّرّ لكونها أقرب إليهم من حيث الأصل والنشأة، إلى حد جعل المقريزي يحسبها أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك، وسرعان ما تطورت الأحداث في مصر بصورة أدت إلى تولي المماليك سلطنة مصر.

- سلطنة أيْبَك التُّرْكماني وأهم أحداثها:

- أدرك المماليك في مصر خطورة ما أقدم عليه بنو أيوب في الشام على دولتهم الناشئة ومستقبلهم السياسي في وقت استرجعوا فيه معارضة الخليفة العباسي المستعصم وعلماء الدّين إزاء إسنادهم السلطنة لامرأة، ولم يروا غضاضة من نقل السلطنة إلى عز الدِّين أيْبَك بعد زواجه من شجر الدُّر، وتم لهم ما أرادوا إذ تولى هذا الأخير السلطنة بعد أن تنازلت عنها شجر الدُّر، وتلقب بالمعز و(ركب بالسناجق السُّلْطانية والغاشية بين يديه في آخر ربيع الآخر(٦٤٨هـ/١٢٠٥م) وبطلت السكة والخطبة باسم شجر الدر)؛ وأشار المؤرخ تقي الدِّين المقريزي في هذا السبيل بأن شجر الدر(خلعت نفسها من مملكة مصر، ونزلت عن الملك، فكانت مدة دولتها ثمانين يومًا).

• ما هي الصعوبات التي واجهت السُّلْطان المعز أيبك التركماني ؟

معارضة الأيوبيين في بلاد الشام	خطر المماليك البحرية وزعيمهم أقطاي	السُّلْطانة شجر الدُّر

- كان طبيعيًا أن يلجأ المعز أيْبَك التُّرْكماني إلى مواجهة تهديدات بني أيوب، فأخذ يبحث عن صيغة شرعية تدعم حكمه في السلطنة، ومن أجل ذلك وافق أقرانه المماليك على استحضار أحد أبناء بني أيوب لم يتجاوز عمره ست سنوات واسمه موسى بن يوسف بن يوسف(الأشرف مظفر الدِّين موسى بن النَّاصر يوسف بن المسعود أَقسِيس بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن نجم الدِّين أيوب)، وأقامه في السلطنة جاعلًا من نفسه هو أتابكًا عليه متظاهرًا بأنه شريك له في الحكم؛ وجعل المراسيم والخطبة باسميهما؛ وركب الاثنان الأشرف والمعز(بالسناجق السُّلْطانية وشقا القاهرة ...).
- على أن الأيوبيين بزعامة النَّاصر يوسف صاحب حلب لم تخف عليهم ما كان يضمره المماليك من نوايا غير حسنه تجاهم، وأدركوا تمامًا أن مشاركة الأمير الأيوبي الطفل لا تخرج عن كونها لعبة سياسية أقدم عليها المماليك بهدف التهدئة بينما أمور مصر كلها بيد المعز أيْبَك؛ وما كان للأشرف ليس إلا الاسم، الأمر الذي دفع بهم إلى المسير خلف زعامة النَّاصر يوسف الأيوبي قاصدين مصر لمحاربة المماليك.

- شارك في الحملة المتجهة إلى مصر عدد من ملوك وأمراء البيت الأيوبي في الشام، ووصلت الحملة إلى نواحي غـزة منتصـف رمضان ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. وكان أن حاول الملك النَّاصر يوسف الأيوبي الاستعانة بالملك الصليبي لويس التاسع الذي كان آنذاك بالشام بعد جلائه عن دمياط- ظنًّا من أن نجاح حملته تستوجب انضمامه إليه، وعندئذ وعد بتسليمه بيت المقدس إذا ما عاونه في غزو مصر، لكن السُّلْطان أيْبَك علم بأنباء هذا الاتصال، وهدد الملك الفرنسي إن قام بأي عمـل عـدائي ضـده، وفي الوقت نفسه أبدى له استعداده بتعديل معاهدة دمياط والتنازل عن نصف الفدية المتفق عليها حالة إذا ما انضم إليه ضد النَّاصر يوسف؛ غير أن الملك لويس التاسع آثر الوقوف على الحياد مراقبًا الموقـف عـن كثـب أمـلًا في إتخاذ الخطـوة المناسبة بعدما ينتهي الموقف بين الطرفيين الإسلاميين من نتائج.
- التقى الطرفان الأيوبي والمماليكي في معركة فاصلة ذي القعدة ٦٤٨هـ/١٢٥١م، عنـد بـلدة العباسـة بـين بلبـيس والصـالحية دارت فيها الدائرة على الملك النَّاصر الأيوبي بعد أن خذله مماليكه العزيزية وانضمامهم إلى المماليك البحريـة، وقفـل الملـك الأيوبي راجعًا في خاصته ومن معه إلى الشام بعد أن فقد عددًا كبيرًا من القتلى؛ ومع ذلك لم يتركه السُّلْطان المعـز أيْبَـك وشأنه، بل قرر غزو الشام والخلاص من المقاومة الأيوبية بها، ولتحقيق ذلك استعان بالملك الصليبي لويس التاسـع واعـد إياه إن هو حالفه أعطاه بيت المقدس بعد الاستيلاء عليها، وعندئذ وجد ملك الصليبيين أنـه مـن الأصـلح له الانضـمام للمماليك على حساب الأيوبيين بعد أن رجحت كفتهم، وانتهى الأمر بأن اتفـق الطرفـان المـاليكي والصـليبي على القيـام

بحملة مشتركة لطرد النَّاصر يوسف من الشام؛ ولتنفيذ هذه الخطة استولى لويس التاسع على مدينة يافا دون مقاومة؛ وكان من المتفق عليه أن يحتل أيْبَك غزة، لكن النَّاصر يوسف سبقه إليها واستولى عليها للحيلولة دون اتصاله بالصليبيين.

- سرعان ما تدخل الخليفة العباسي بين أيْبَك والنَّاصر يوسف؛ وانتهى الأمر بالصلح بينهما بوساطة نجم الدِّين البادرائي مبعوث الخليفة في ٦٥١هـ/١٢٥٣م، شريطة أن تصير الجهات بين مصر والأردن تابعة للمماليك، وتشمل-أيضًا- غزة والقدس ونابلس، والساحل كله، بينما يصير ما وراء الأردن من توابع النَّاصر يوسف الأيوبي، وأن يطلق المعز أيْبَك جميع من أسر من جند الملك النَّاصر، وأعقب المعز ذلك كله بأن أطلق سراح المعظم تورانشاه بن السُّلْطان صلاح الدِّين يوسف بن أيوب، وأخاه نصر الدِّين، وأشهدهم قبل تركهم لمصر العهد المكتوب في شأن الصلح مع النَّاصر يوسف.

- سرعان ما ازداد نفوذ المماليك البحرية بتأثير ما حققوه من انتصارات على الصليبيين في مصر والأيوبيين في الشام، وكان أيْبَك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه(الملك المعز)، كما عين مملوكه قطز المعزي نائبًا للسلطنة بمصر ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الأيوبي الطفل الأشرف موسى شريكه الأساسي في الحكم، وانفرد بالسلطنة دون منازع.

- غير أن ذلك لم يقلل من خطر أقطاي[1] وزملائه البحرية، خاصة أن أقطاي قد ازداد نفوذه ووصل إلى قمة المجد بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج . وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده، وكان كثيرًا ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكا، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضي عنه لكثرة خشداشيته البحرية، وبعبارة أخذ أقطاي يرنو علانية نحو السلطنة، كما أخذ خشداشيته(زملائه) يسعون في تحقيق بغيته، فلبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على تزويجه من إحدى أميرات البيت الأيوبي ابنه الملك المظفر تقي الدِّين محمود ملك حماه، بل تآمروا على أيْبَك ليخلو الجو لأقطاي. ثم حدث أن طلب من أ]بك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل لكونها من بنات الملوك، فلم يبق بعد ذلك لدى أيبك أي شك في نوايا أقطاي، فصمم على قتله. وفي يوم الاربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، طلب أيبك من أقطاي الحضور إلأى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور بعد أن اتفق مع مماليكه المعزية على اغتياله. وركب أقطاي إلى القلعة في عدد من مماليكه فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدي إلى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى، حتى أغلق خلفه ومنع مماليكه من اللحاق به، ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزي وقتلوه بسيوفهم، وأيع خبر مقتله في القاهرة، فهرع لإنقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم الأمير بيبرس البندقداري والأمير قلاوون الألفي، وفي ظنهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض عليه، فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمي بها إليهم من سور القلعة. ولم يجد المماليك البحرية إزاء ذك سبيلًا سوى الفرار إلى

---

[1] هو الأمير فارس الدِّين أقْطاي بن عبدالله الجَمَدَار الصالحي النجمي التركي.

الشام حيث ساروا أتباعًا لبني أيوب مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، والمغيث عمر ملك الكَرَك، كما التجأ مائة وثلاثين منهم إلى سلاجقةالروم بآسيا الصغرى، حيث السُّلْطان علاء الدِّين كيقباذ.

- كان لمقتل أقطاي آثاره على المماليك فقد انقسموا إلى طائفتين تتنازع كل منهما الأخرى وهما البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لأشد الأخطار؛ إذ أخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبي على غزو مصر، ولم يخف ذلك على أيبك، فعمد أولًا إلى مصادرة أموال المماليك البحرية، كما قبض على من بقي منهم في مصر، وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الأخرى في مصر.

- كتب أيبك إلى الملوك الذين لجأ إليهم البحرية، وحذرهم منهم ومن غدرهم وشرهم، وقد أغرى أمراء البحرية الذين فروا إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب، وأغروه بفتح مصر، مما أدى إلى تأزم الموقف بين المعز أيبك والناصر يوسف، ولكم الأمر انتهى بالصلح بفضل واسطة الخليفة المستعصم العباسي الذي أرسل رسوله نجم الدِّين البادرائي في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، حيث وقع الصلح على أن يكون لأيبك الديار المصرية وساحل الشام، وعلى ألا يأوي الملك الناصر عنده أحدًا من البحرية، فاضطر المماليك البحرية إلى الرحيل عندما علموا بذلك.

- على ما يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدُّر والمماليك البحرية بالكَرَك مـن مراسـلات واتفاقـات، فعـزم على الزواج من غيرها، وأرسل سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، إلى بدر الدّين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب إليه منه الزواج مـن ابنتـه وعقـد تحالفًا بينهما. وكيفما كان الأر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، ذلك أنه لما علمـت شـجر الدر بمـا يـدبره أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته والقضاء عليه.

- استطاعت زوجته شجر الدَّر تدبير مؤامرة أدت إلى الفتك بالمعز أيبـك، فقـد أرسـلت أحـد المماليـك بهديـة إلى النـاصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز، والتزوج به وتمليكه مصر، فخشي الناصر أن يكون في الأمر خدعة، فلـم يجبها بشيء. وعندما علم بدر الدّين لؤلؤ بتلك الأخبار أرسل للمعـز يحـذره منهـا، فأقـام بمنـاظر اللـوق، فأرسـلت إليـه وتلطفت في دعوته، وقد أعدت خمسه ليقتلوه منهم: محسن الجَـوْجَرِي، وخـادم يعـرف بنصـــر العزيـزي، ومملـوك يسـمى سنجر، فقتلوه في الحمام في ربيع الأول ٦٥٥هـ/١٢٥٧م.

- المماليك
- المماليك البحرية
- الصالح نجم الدين أيوب
- شجر الدُّر
- المعز أيبك التركماني
- فارس الدين أقطاي
- الناصر يوسف الأيوبي
- قطز
- بيبرس البندقداري